

## المسألة الأرمنية في الدولة العثمانية من عهد السلطان عبد الحميد الثاني حتى تأسيس الجمهورية التركية العام 1923

عبد الرؤوف سنو  
الجامعة اللبنانية

نشأت المسألة الأرمنية وتقلبت معالمها من خلال وعي الشعب الأرمني خصوصيته وتمايزه في بيئة جغرافية سكانية، وخضوعه لدول واحتكاكه بشعوب، من بيزنطيين وروس وفرنس وسلاجقة وأكراد وتركمان وأتراك. إن وقوع الأرمن في مرمى الجيوبوليتيك لكل من روسيا وفرنس والدولة العثمانية، جعل الحركة القومية الأرمنية تتأخر حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

### 1- مقدمة

تحت الحكم العثماني، احتفظ الأرمن، كما باقي الجماعات غير الإسلامية في السلطنة، باستقلالهم الذاتي وفق نظام الملة العثماني. ومع التحوّلات التي أتى بها القرن التاسع عشر، من ناحية تنامي مشاعر القومية لدى الشعوب، والضعف الذي بدا واضحاً على الدولة العثمانية من جراء ثورات شعوبها التي تحكّمها، ومحاولاتها الإصلاح التي لم تجذب إليها مسيحيي السلطنة، وتدخل الدول الأوروبية، وبخاصة روسيا وبريطانيا في شؤونها الداخلية، تحوّلت المسألة الأرمنية إلى قضية شعب ينشد الاستقلال وإقامة دولته القومية على أرض أرمنية التاريخية. ومن جراء ذلك، حملت القضية الأرمنية الكثير من المآسي للشعب الأرمني، وبخاصة في عصر السلطان عبد الحميد الثاني وخلال الحرب العالمية الأولى وفي أعقابها. فحارب العثمانيون طموحات الأرمن القومية باسم القومية التركية والإسلام، ووصفت الأدبيات العثمانية والتركية الأرمن بالإرهابيين والمخربين والمتمردين والمتأمّرين على الدولة، في حين يمكننا أن نضع هذه الطموحات على قدم المساواة مع طموحات العرب القومية للاستقلال عن الدولة العثمانية بمساعدة بريطانيا خلال الحرب العالمية الأولى. فلماذا يحقّ للعرب الاستعانة ببريطانيا للاستقلال عن الدولة العثمانية، فيما لا يحقّ للأرمن أن يفعلوا ذلك، ويُوصفوا بالخونة في الأدبيات العربية؟

وكما وقع العرب ضحية تقاسم بلدانهم بين بريطانيا وفرنسا في "اتفاق سايكس - بيكو" العام 1916، فقد وقع الأرمن بدورهم ضحية مصالح الدول الكبرى، فتعرّضوا لمجزرتين الأولى العام 1895 والثانية خلال العام 1915، وقُضي على جمهوريتهم مطلع العشرينيات من القرن الماضي، ولا تزال إبادة الأرمن (Armenian Genocide) تقتحم التاريخ المعاصر لسببين: أنّها قضية قومية عملت تركيا العثمانية على حلّها بمجازر دموية، وثانياً أنّ تركيا الحديثة لم تقدّم الاعتذار ولا التعويضات عما سبّته من مآسٍ للشعب الأرمني. من هنا، تنتشبت المأساة الأرمنية

في الذاكرة الجماعية للعشب الأرمني، وتتوارثها الأجيال لتشكل ملحمة صمود وتحدي وانبثاق فجر جديد.

## 2- المسألة الأرمنية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني

تُقدم لنا المسألة الأرمنية مثلاً واضحاً حول سياسة الدولة العثمانية في عصر السلطان عبد الحميد الثاني وبعده تجاه القوميات المسيحية في السلطنة الساعية إلى الاستقلال. فمنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ازدادت تطلعات الأرمن القومية بفعل النهضة الثقافية، وإنشاء الجمعيات والنوادي، وتعميم التعليم، وتطور وسائل الإعلام والمواصلات والتجارة، كما حصول اليونان على استقلالها العام 1829، وجبل لبنان على الحكم الذاتي العام 1861 (المتصرفية)، فضلاً عن دور الإرساليات التبشيرية في تغذية الروح الاستقلالية لقوميات السلطنة.<sup>1</sup>

ويُجمع مؤرخون على أن العام 1860 هو بداية النهضة الأرمنية، عندما صدر "دستور أرمني" (المبادئ الأساسية) لتنظيم أوضاع الطائفة الداخلية وعلاقتها بالسلطنة. ومنذ منتصف صيف 1876، استغل الزعماء الأرمن الجورجيين الأزمة البلقانية والحرب الروسية - العثمانية وأخذوا يحرّضون إخوانهم في السلطنة ضدها، بحجة أن الوقت قد حان لقيام الدولة الأرمنية المستقلة.<sup>2</sup> وكانت أصابع روسيا واضحة خلال تلك الحرب في تحركات الأرمن وتلاعبها بمشاعرهم القومية. فمن تفليس، دعت صحيفة "Mushag" الأرمنية إلى الثورة ضد "الكفرة" (العثمانيين)، وإلى الاعتماد على روسيا لرفع الطغيان العثماني عن الأرمن. وعلى الرغم من تأييد ممثلي الأرمن في البرلمان العثماني الجديد (مجلس المبعوثان) الباب العالي ضد سياسة روسيا تجاه السلطنة، إلا أن هزيمة العثمانيين في الحرب العام 1878، جعل الأرمن يجدّدون اتصالاتهم مع المعسكر الروسي في سان ستيفانو (San Stefano)، ومع بريطانيا أيضاً.

لقد أكد بطريرك الأرمن نرسيس فارطبديان (Nerses Vartabedian) للسفير البريطاني في استانبول استحالة التعايش الأرمني - الإسلامي، وأن الأرمن كمسيحيين يطالبون بدولة مستقلة ذاتياً على نسق "متصرفية جبل لبنان". وما لبث البطريرك أن قدم إلى "مؤتمر برلين" حول تنظيم الاستعمار الأوروبي في إفريقيا (1884 - 1885) مذكرة حدّد فيها حدود الدولة الأرمنية المستقلة التي يُصرّ شعبه عليها، وتضم كلّ البلاد الواقعة بين الحدود الروسية والفارسية والبحر الأسود، وهذا يعني أن يصبح مسلمو تلك المناطق أقلية تحت حكم مسيحي، أو أن يُطرّدوا منها. وفي الوقت نفسه، بدأ الأرمن استعدادات لتحضير "قانون أساسي" لدولتهم المستقلة.<sup>3</sup> وكتب لايارد (Layard)، السفير البريطاني في العاصمة العثمانية، إلى وزير الخارجية ساليزبوري (Salisbury) يقول: "إنّ مسلمي تركيا الآسيوية علموا بالمصير الذي لحق بإخوانهم في الولايات المسيحية المستقلة ذاتياً في البلقان، ولذا لن يرضخوا لمثل هذا المصير، وإنّ الدعوة إلى دولة أرمنية سوف تؤدّي إلى حرب أهلية".<sup>4</sup>

وبعد مؤتمر برلين، ازدادت مطالبات بريطانيا الباب العالي بتنفيذ إصلاحات بالنسبة إلى الأرمن، أقرتها المعاهدة التي انبثقت عنه.<sup>5</sup> لكن السلطان العثماني ماطل في تنفيذ الالتزامات المفروضة

<sup>1</sup> Salahi Ramsdan Sonyel, The Ottoman Armenians, London 1987, 4-5.

<sup>2</sup> جليلي جليل وآخرون، الحركة الكردية في العصر الحديث، ترجمة عبيدي حاجي، بيروت 1992، ص 42.  
<sup>3</sup> "The Armenian Question". Contemporary Review, 65 (1894), 850 - 51

<sup>4</sup> نقلاً عن: Sonyel, 40 -42, 46 - 48, 76.  
<sup>5</sup> حول إقرار معاهدة برلين لإصلاحات للأرمن، انظر:

عليه لأسباب عدّة، أهمها: تأثير احتلال بريطانيا لمصر سلباً في سمعته كخليفة،<sup>6</sup> وبالتالي تدهور العلاقات العثمانية – البريطانية، فضلاً عن تدخل بريطانيا في شؤون السلطنة الداخلية بإرسالها مراقبين عسكريين لتنفيذ الإصلاحات في أرمينيا والأناضول، وافتتاحها قنصلية في فان (Van). ورأى السلطان عبد الحميد الثاني أنّ أصابع بريطانيا وروسيا وراء تحرّكات الأرمن خلال مؤتمر برلين وفي أعقابها، وبخاصّة تشكيلهم "منظمات ثورية سرّية للتحرير" بعد العام 1880، وتطلّعتهم إلى إقامة كيانٍ سياسي مستقلّ في تركيا الآسيوية.<sup>7</sup> وهذا ما أعطى انطباعاً للعثمانيين بأنّ بريطانيا تؤيد قيام دولة أرمنية مستقلة تحت حمايتها.<sup>8</sup>

وفي السابق، لم يتسبّب استقلال ولايات السلطنة المسيحية في البلقان في بُعد النهائي بأيّة مشكلة على الصعيد الاستراتيجي العثماني، حيث كان العثمانيون، على المستويات كافة، يتوقعون أن يأتي اليوم الذي يفقدون فيه البلقان المسيحي. وفي العام 1889، قال السلطان: "في الحقيقة، يبدو أنّ الأتراك لا يتطلعون اليوم إلى المصالح الإمبريالية، بل إلى تلك الإسلامية، ويعتبرون شبه جزيرة البلقان ساقطة بالنسبة إليهم".<sup>9</sup> وبعد التمرّك العثماني في تركيا الآسيوية والولايات العربية عقب خسارتهم معظم البلقان، نظر العثمانيون إلى إقامة كيان أرمني في تركيا الآسيوية "الإسلامية" على أنّه تهديد "للأمن القومي العثماني". فاعتبر السلطان أنّ الأناضول هو "القلب والرتنان للجسم السياسي العثماني، فإذا قطعاً فسيهلك كامل العضو"<sup>10</sup>، وأنّ كياناً أرمنياً هو بمثابة "إستنصال متعمّد للنفوذ الإسلامي في تركيا الآسيوية، وتدمير للدولة، وإثبات بعدم جدواها في المستقبل".<sup>11</sup>

ولمواجهة مخطّطات الأرمن وروسيا وفارس، وإحداث توازن في شرق الأناضول، عمد السلطان عبد الحميد الثاني العام 1890 إلى التلاعب بالأقليات الدينية عبر إنشاء "الأفواج الحميدية" من الخيالة التابعين لعشائر الأكراد<sup>12</sup>، واستغلال تعصّبهم الإسلامي لوضعهم في

<sup>6</sup> F.O. 78/4478, {Sandison's memorandum}, Comstantinople 1.3.1893, F.O. 800/32. Vambery 41 – 33 من دون ترقيم وتاريخ.

<sup>7</sup> PAAA, Türkei 13 Band 3, Radowitz an das Auswärtige Amt, A 2146, Nr.. 83, Pera 12.5.1883; Radowitz an das Auswärtige Amt, A 2194, Nr.40, Pera 15.5.1883; PAAA, Orientalia Generalia, 1, Band. 8. Oppenheim an Bülow, A. 8954, Nr. 273, Cairo 1906.

<sup>8</sup> Günter Max Behrendt, Nationalismus in Kurdistan, Hamburg 1993, 207.

<sup>9</sup> F.O. 78/4201, White to Salisbury, political, no.4, Constantinople 4.1.1889  
وحول المواقف الإسلامية في السلطنة تجاه مصير البلقان، راجع F.O. 424/67, Layard to Derly, no. 159 Constantinople 2.2.1878. وقارن بـ: الأميرة عائشة، والذي السلطان عبد الحميد الثاني. مذكرات الأميرة عائشة عثمان أوغلي، ترجمة صالح سعداوي، عمّان 1991 ص 31 - 32.

<sup>10</sup> نقلاً عن: Sonyel, 49

<sup>11</sup> "There was a determination of eradicating from H.M. asiatic provinces all Mussulman influence and support to form out of those provinces a sort of Bulgaria... Turkey will have to go to pieces and prove for the future a shattered and useless power" سكرتير السلطان إلى السفير البريطاني وايت (White) حول وجهة نظر السلطان، انظر: F.O. 78/4205, Memorandum by Sandison, very confidential, Constantinople 30.8.1889, inclosure in White no. 356, 31.8.1889.

<sup>12</sup> انظر تقرير ماكس فون أوبنهايم حول «الأفواج الحميدية» في PAAA, OG 9,1, Bd.4, no. 104, A Robert Olson, The Emergence of Kurdish Nationalism and the Sheikh Said Rebellion, 1880 - 1925, Austin 1989, 7 – 8.

مواجهة الأرمن، إدراكاً منه بأن مصالح الفريقين "الجيوسياسية" سوف تتضارب في المنطقة.<sup>13</sup> فتمثلت ردة فعل الأرمن على السياسة العثمانية بتكثيف منظماتهم نشاطاتها الإعلامية في أوروبا، وتأسيس حزبين: الهنشاك (Hanshak)، بطابعه الماركسي في جنيف العام 1887، والطاشناق (Tashnag) في تفليس بعد ثلاثة أعوام من ذلك التاريخ. وكان الحزب الأخير أكثر التزاماً بالقضية الأرمنية في السلطنة وفي المحافل الدولية.<sup>14</sup>

وفيما اعترف السلطان عبد الحميد الثاني بوجود ملة أرمنية ينتشر أفرادها في أنحاء بلاده، رفض مقولة وجود "شخصية قومية أرمنية"، ورأى أن الأرمن لم تقم لهم دولة مستقلة أبداً، وإن إعطاءهم كياناً سياسياً مستقلاً لن يُوقف تطلّعهم نحو الاستقلال التام، ولا التدخل والتحرير الخارجيين، فضلاً عن أنه يضرّ بالسيادة العثمانية ويهزّ صورته كخليفة.<sup>15</sup> ولهذا السبب، نظر السلطان بشكٍّ وريبة إلى تحركات الأرمن الثورية.<sup>16</sup>

وعندما وافق الصدر الأعظم جواد باشا في أيار 1895، وبضغط أوروبي، وبريطاني تحديداً، على منح الأرمن استقلالاً ذاتياً، صعق السلطان وأقاله على الفور، ثم علق على تلك الحادثة بالقول: "... لا أستطيع أن أتخيل وضعاً أشدّ ضرراً من استقلال ذاتي للأرمن على رأس ما حصلوا عليه من امتيازات... كيف أتسامح إذن مع وزير وضع خاتم موافقته على مثل هذا الاقتراح... إن واجباتي تجاه ديني ودولتي وبلادتي، التي يجب أن أضعها فوق كلّ اعتبار، تحتم عليّ أن أمنع هذه النكبة"<sup>17</sup> ويتبين من الاقتباس المذكور، أن العثمانيين كانوا يتجاهلون الحقوق القومية للأرمن، وينطلقون من أن أراضي الأرمن هي ممتلكات إسلامية، فيتعاملون معهم على أساس أنهم يشكلون تهديداً لـ "الأمن القومي الإسلامي"، أي الأمن القومي العثماني. وكان موقف السلطان هذا يحظى بدعم المسلمين في السلطنة وقياداتهم، وعلى رأسها شيخ الإسلام، ضدّ

<sup>13</sup> جليل وآخرون، الحركة الكردية 43 - 45.

<sup>14</sup> جان شرف، القضية الأرمنية في السلطنة العثمانية، مركز الدراسات الأرمنية، بيروت 1997، ص 183

– 184.

<sup>15</sup> F.O. 78/4277, White to Salisbury, secret, no. 412, Therapia, 10.9.1890; White to Salisbury, secret, no.417, Therapia 12.9.1890.

لا يمكن في الواقع القبول برأي السلطان عبد الحميد الثاني حول عدم قيام دولة أرمنية في السابق. ففي القرون الأولى ق.م. أسس الإمبراطور ديكران مملكة أرمينيا، ولكن الدولة الرومانية قضت عليها واتبعها بها. وباضمحلال الدولة الرومانية، أصبحت أرمينيا موضع نزاع بيزنطي- فارسي. وفي القرن السابع الميلادي كانت أرمينيا مستقلة ذاتياً تحت الحكم العربي. وخلال العصور الوسطى، تمكن الأرمن من إقامة دولة مستقلة، لكن سلطان المالك بيبيرس قضى عليها العام 1375. وفي العام 1400، قُسمت أرمينيا بين الدولة العثمانية وفارس، ثم خضعت أرمينيا الفارسية للحكم الروسي منذ العام 1828، فيما استمر العثمانيون يحكمون أرمينيا التركية، انظر، الموسوعة السياسية ج1 بيروت 1979 ص 151 - 153. وقارن بـ «المسألة الأرمنية احتجاج شعب مشنتت» (الأقليات في العالم العربي) في معلومات (بيروت)، 10(1994) ص 43 - 54.

<sup>16</sup> Avedis K. Sanjian, The Armenian Communities in Syria under Ottoman Dominion, Cambridge Mass., 1965, 44.

<sup>17</sup> نقلاً عن: Engin Deniz Akarli, "Friction and Discord within the Ottoman Government under Abdul-Hamid II (1876-1909)". *Bogaziçi [niversitesi Dergisi*, 7(1979), 15-16.

الاختراق الأجنبي للبلاد، ويرون أنّ قيام كيان أرمني يقدم للأرمن مزيداً من الفرص للتفوق على الأتراك المسلمين في عقر دارهم في الأناضول<sup>18</sup>.

وما لبث السلطان أن استغل الاضطرابات الأرمنية منذ عام 1892، وامتناع الأرمن عن دفع الضرائب، ثم حوادث ساسون - زيتون العامين 1894 و1895، وارتكاب المجازر بحق الأرمن المنتفضين،<sup>19</sup> والنشاط السري المتزايد للمنظمات الأرمنية، باستيراد السلاح وتوزيع المناشير المعادية للدولة والتحريض على الثورة<sup>20</sup>، فضلاً عن تدخل روسيا، ومخططات بريطانيا لتقسيم السلطنة العام 1895 بوافق دولي،<sup>21</sup> ومظاهرة أسطولها أمام مدخل الدردنيل خريف 1895 دعماً لاستقلال الأرمن الدّاتي،<sup>22</sup> وأخيراً، مظاهرات الأرمن في أيلول 1895 أمام الباب العالي، ليباشر ما يُعرف بالتاريخ بـ"المذابح الأرمنية". صحيح أنّ الدول الأوروبية طالبت بإجراءات حاسمة ضد الدولة العثمانية، إلا أن الصحيح أيضاً، أنّ أوروبا لم تشأ أن تسمع ما ارتكبه الأرمن بحق المسلمين.<sup>23</sup>

بعدما أثار المسلمين في السلطنة بالإعلان عمداً في 17 تشرين الأول 1895 عن إصلاحات للأرمن،<sup>24</sup> أرسل السلطان عملاءه إلى المناطق لترويج الضغوط التي يتعرّض لها المسلمون من جراء فرض إصلاحات للأرمن، وأخذ يحرك العصبية الطائفية ويحرّض الأكراد والأتراك ضدّ الأرمن باسم الشريعة والدين. وجرى توزيع منشورات تُحلل على المسلمين ممتلكات الأرمن،<sup>25</sup> وتمتدح في الوقت نفسه قدرة المسلمين على إخماد أية فتنة أرمنية؟<sup>26</sup> فأدى هذا التحريض إلى وقوع اشتباكات دموية واسعة في الأناضول بين المسلمين والأرمن شارك فيها أكراد من

<sup>18</sup> F.O. 424/183, Currie to Salisbury, secret, no. 385, Constantinople 26.8.1895; F.O. 800/33, Vambery to Sanderson, Budapest 1.11.1895, 21 - 22.

<sup>19</sup> قال الصدر الأعظم سعيد حلمي باشا في حينه "إنّ المسألة الأرمنية لا تحلّ إلا بإزالة الأرمن من الوجود نهائياً". نقلاً عن: مسعود عكو، "المجازر العراقية كالمجازر الأرمنية". *جريدة الوسط*، 22 آذار 2005 <http://www.alwasatnews.com/news/454481.html>

<sup>20</sup> F.O. 78/4277, Clifford to White, no. 61, Erzerum 19.7.1890; 78/4277, Jewett (USA consul in Sivas) to British Consul in Sivas, 1.8.1890; F.O. 424/182, Durand to Kimberley no. 20, Tehran 21.4.1895; 424/187, Currie to Salisbury no. 267, Pera 6.4.1896; Duguid, op. cit. 147 - 150; Kinross 554 - 563; Sonyel 126ff.

<sup>21</sup> E.T.S. Dugdale, German Diplomatic Documents 1871 - 1914, vol. 1, cap. XXII, London 1928 327 - 47.

<sup>22</sup> F.O. 424/184, Hay to Currie, Beyrouth 14.10.1895; Currie to Salisbury no. 732, Constantinople 6.10.1895, 3 inclosures.

<sup>23</sup> جاستن ماكارثي وآخرون، *التمرد الأرمني في "وان"*، ترجمة الشبكة الدولية للترجمة، الدار العربية للعلوم، بيروت 2010، ص 90.

<sup>24</sup> Sonyel 183, 185, 193; Behrendt 250 f.

<sup>25</sup> F.O. 424/189, Fitzmaurice to Currie, confidential, Oufra 6.9.1896; Pears op.cit., 233 - 234.

<sup>26</sup> F.O. 800/32, Vambery to Sanderson, "World Suffice to Quell any Rising, 7.5. 1894

"الأفواج الحميدية" وسط استنكار دولي.<sup>27</sup> ووفق عالم الآثار الألماني ماكس فون أوبنهايم (Max von Oppenheim)، فإن تأسيس "الأفواج الحميدية على يد السلطان عبد الحميد الثاني كان من أجل إضعاف مشاعر القومية الكردية بمفهوم "الجامعة الإسلامية"، واستخدام حماية الأكراد القتالية لوضعهم في مواجهة الأرمن.<sup>28</sup> لكن اعتداءات الأكراد طاولت أيضاً جيرانهم من القرويين المسلمين. وقد اعتبر القنصل البريطاني في فان أن الغالبية الساحقة من الأرمن والمسلمين ما رغبت إلا بالسلام، بينما حمل الأكراد مسؤولية الشغب والقتل.<sup>29</sup>

وفيما اعتبر مسلمو السلطنة موقف أوروبا المؤيد للأرمن "استمراراً للحرب الصليبية ضد الإسلام"<sup>30</sup>، وشكّلوا جمعيات في ولايات السلطنة الشرقية لإحباط أية إصلاحات تُمنح لهم،<sup>31</sup> وصف السلطان عبد الحميد المجازر بحق الأرمن بـ "العمل الدفاعي" المحض،<sup>32</sup> واتهم أوروبا بالتحيز ضدّ بلاده، متسائلاً: لماذا لم تحرك أوروبا ساكناً عندما ذبح المسلمون في بلغاريا مطلع الأزمة البلقانية؟ وعلّق بالقول: "هل دم المسلم أقلّ قيمة من دم المسيحي".<sup>33</sup> وفي خريف 1896، نقل المستشرق الهنغاري فامبري، الذي كان جاسوساً لبريطانيا لدى السلطان العثماني، إلى البريطانيين استياء السلطان من موقف أوروبا المنحاز لصالح الأرمن، والذي يهدف إلى تدمير الدولة العثمانية، فقال: "من خلال انتزاع الصرب واليونان ورومانيا قطعت أوروبا أيدينا وأرجلنا، وبقيت الأمة الإسلامية ساكنة. ولكن بإثارة المسألة الأرمنية، فأنتم تنبشون في داخلنا وتمزقون أحشاءنا، وهذا ما لا نستطيع احتماله، وسوف، بل يجب علينا أن ندافع عن أنفسنا".<sup>34</sup>

ورداً على ذلك، وفي إطار إستراتيجيته الاستباقية للأمن القومي العثماني، أصدر السلطان عبد الحميد الثاني قانوناً العام 1896 فرض بموجبه على المسلمين ضريبة من أجل التسلح، وسط تحريض أئمة المساجد المسلمين على الانصياع لهذا المرسوم.<sup>35</sup> فكان هذا القرار خاطئاً، إذ وضع مكونات "الشعب العثماني" الإثنية في مواجهة بعضها البعض، بدلاً من أن تتولّى الدولة معالجة الأمور. وأسفرت المواجهات عن مقتل ما بين 100 ألف و300 ألف أرمني،<sup>36</sup> أي ما يعادل نسبته 10% من السكان الأرمن في الدولة العثمانية، وتهجير حوالي 100 ألف آخرين إلى القوقاز. صحيح أنّ العثمانيين استخدموا القمع الوحشي لضرب الحركة الأرمنية الثورية واستفزازاتها، إلا أنّ الصحيح أيضاً أنّ تذبذب مواقف الدول الكبرى من المسألة الأرمنية، أسهم إلى حدٍ كبير في استفراد الدولة العثمانية بالأرمن. وهذا جعل الأحزاب الأرمنية تكثف نضالها

<sup>27</sup> F.O. 78/4277/ Clifford to White no. 61, Erzerum 19.7.1890; Op. cit., Jewett to British consul in Trebizond, Sivas 1.8.1890; Olson 10.

<sup>28</sup> راجع ملفات أوبنهايم تحت المفتاح OG المحفوظة في الأرشيف السياسي الألماني في برلين.  
<sup>29</sup> جاستن مكارثي/أسعد أرسلان وآخرون، التمرد الأرمني في "وان"، ترجمة الشبكة الدولية للترجمة، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2010، 79، 82.

<sup>30</sup> PAAA, O.G. 9, Bd.2, Oppenheim an Hohenlohe-Schillingsfürst, Nr. 10, A 3650, Cairo, 7.5. 1897.

<sup>31</sup> Behrent, 250 - 251.

<sup>32</sup> F.O. 800/33, Vambéry to Sanderson, Budapest, 1.11.1895, 21.- 22' 10.10.1895, 66-99.

<sup>33</sup> المرجع السابق، الوثيقة نفسها، 21-32.

<sup>34</sup> نقلاً عن: F.O. 800/33, Vambéry to Sanderson, Budapest, 10.10.1895, 66-69.

<sup>35</sup> F.O. 424/189, Currie to Salisbury no. 882, confidential 28.10.1896.

<sup>36</sup> Rouben Paul Adalian, "The Armenian Genocide : Context and Legacy, The Official Journal of the National Council for the Social Studies

القومي في ضوء الأوضاع الدولية، كتكلمة على تعزيزات تردها من أرمن إيران، بعدما رفعت شعار "المصالحة مستحيلة؛ لن نلقي سلاحنا. إن حربنا حرب مقدّسة، وسنواصلها بوحشية أكبر حتى الرمق الأخير... لن نستسلم... البتة. فحنن ثوار، وهذه كلمتنا الأخيرة. الموت أو الحرية! فليحي الشعب الأرمني! فلتحيى الثورة".<sup>37</sup> ومع تقدّم التمرد الأرمني في السنوات التالية، تصاعد بدوره الرد العثماني.

### 3- المسألة الأرمنية عشية الحرب العالمية الأولى وفي خلالها وأعقابها

بعد القضاء على حكم السلطان عبد الحميد الثاني العام 1909، تعاون "حزب الطاشناق" مع "لجنة الاتحاد والترقي" على توحيد السعي نحو الدستورية، وحلّ المشكلات العالقة بين الأرمن والدولة العثمانية، وفي مقدمها الخلاف بين الأرمن والأكراد حول الأراضي الزراعية في الولايات الشرقية في الأناضول. وبسبب خشية النظام الجديد من استغلال روسيا الأرمن ضدّهم وطرح إصلاحات جديدة للأرمن، قام العثمانيون من جانبهم بإصلاحات، لم تتغير كثيراً من أوضاع الأرمن. وفي شباط 1914، قبلت السلطنة على مضض بإصلاحات للأرمن فرضتها روسيا عليها، فضلاً عن تعيين مفتشين أجانب للإشراف على تطبيقها. لكن اندلاع الحرب العالمية الأولى وانحياز السلطان العثماني إلى ألمانيا، عطلا تطبيقها.

ومع إعلان السلطان العثماني الجهاد مطلع الحرب الكونية، وتعاضم أيديولوجية القومية التركية في الوقت نفسه، بدأ طموحات العثمانيين تعمل على بسط السيادة العثمانية على مقاطعات الأناضول الشرقية، وباتت حرب عثمانية - أرمنية أمراً واقعاً، على الرغم من دعوة "حزب الطاشناق" في مؤتمره في أرضروم في تموز 1914 إلى مساندة الدولة العثمانية، حتى أنّ بعض الأرمن انضم إلى الجيش العثماني مطلع الحرب، أو أكره على ذلك. لكن الدولة العثمانية لم تكف بنأي أرمن السلطنة أنفسهم عن أرمن القوقاز المتعاطفين مع روسيا، بل طالبتهم بدفع أرمن القوقاز للتحرك ضدّ روسيا. وما لبثت العلاقات بين أرمن السلطنة والدولة العثمانية أن تدهورت خلال الحرب، نتيجة ما لحق بالأخيرة من خسائر أمام روسيا، وأمام بريطانيا في العراق ومصر، كما فشل حملة جمال باشا من فلسطين على مصر، وتحميل السلطات العثمانية الأرمن مسؤولية هزائمها.

وبين نيسان 1915 وأيلول 1918، قرّرت الحكومة المركزية العثمانية اقتلاع الأرمن من المناطق الحدودية مع روسيا، وكذلك من كيليكيا وشمال سورية، والأناضول الشرقية والغربية، واتخذت قرارات بإبادتهم. وكان العثمانيون قد خيروا بعض الأرمن ما بين اعتناق الإسلام وبين التعرّض للمجازر في عصر السلطان عبد الحميد الثاني. لكن هذا الخيار تلاشى في مرحلة الإبادة. فضلاً عن ذلك، عمل العثمانيون على مصادرة أملاك الأرمن وممتلكاتهم بهدف ضرب الاقتصاد الأرمني لدوره المميّز في السلطنة.<sup>38</sup>

وقد اتهم المبشر والمستشرق الألماني يوهانس لبيوس (Johannes Lepsius) السلطات والميليشيات العثمانية والأكراد بالمذابح في سياق الأيديولوجيا القومية التركية، ورأى أنّه لا

<sup>37</sup> نقلاً عن: ماكارثي، التمرد الأرمني، مصدر سبق ذكره، ص 93.

<sup>38</sup> Rouben Paul Adalian, "The Armenian Genocide : Context and Legacy, The Official Journal of the National Council for the Social Studies.

. [http://www.armenian-genocide.org/Education.56/current\\_category.117/resourceguide\\_detail.html](http://www.armenian-genocide.org/Education.56/current_category.117/resourceguide_detail.html)

يجوز اتهام الشعب التركي بأنه شارك في المذابح.<sup>39</sup> وقد نشر لبيسيوس "تقريراً" العام 1916 حول المذابح الأرمنية، لكن السلطات الألمانية صادرتة خشية أن يعكّر علاقاتها بالسلطنة. مع ذلك، تمكن العالم الألماني من توزيع 20 ألف نسخة منه.<sup>40</sup>

\*

استمر تطهير المناطق العثمانية من الأرمن حتى العام 1923. ويقدر أحد المؤرخين الأرمن عدد ضحايا أبناء شعبه من جراء الاقتلاع والمجازر والتهجير والفرار والموت جوعاً أو مرضاً بين 700 ألف و900 ألف. في المقابل، ترفع بعض التقديرات الأرمنية عدد الضحايا إلى بين 1,5 مليون و 1,6 مليون نسمة. ومهما تكن صحة الأرقام ودقتها، فإنّ مأساة حقيقية حلّت بالشعب الأرمني يتحمّل العثمانيون والدول الكبرى مسؤوليتها. إن قبول بريطانيا وفرنسا وروسيا في نيسان 1916 بإلحاق مناطق أرمنية بروسيا، وهي أرضروم وطرابيزون، وفان وبتليس، في سياق تقاسم الدول الثلاث الدولة العثمانية، دلّ على مدى خداع الدول الكبرى وتلاعبها بالمشاعر القومية الأرمنية. أما الدولة العثمانية، فبعد حروب مع الأرمن، اعترفت في معاهدة باطوم في حزيران 1918 بجمهورية أرمنية عاصمتها يريفان، والتي استمرت قائمة حتى مطلع كانون الأول 1920.<sup>41</sup> وفي 28 أيار من العام 1919، أعلن قيام "الجمهورية الأرمنية الديمقراطية". وفي معاهدة سيفر (Treaty of Sèvres) في آب 1920، اعترفت اسطنبول بأرمينا دولة حرّة مستقلة، التي ضمت "أرمينيا العثمانية"، ووعدت بالحفاظ على استقلالها.

وفي المقابل، رفضت الحركة الوطنية التركية بقيادة مصطفى كمال (كمال أتاتورك) بنود معاهدة سيفر، وأسقطت حكومة اسطنبول، واستبدلت النظام السلطاني بنظام جمهوري مقرّه أنقره. إلا أنّ تسارع الأحداث بعد الوفاق بين الاتحاد السوفياتي وتركيا، جعل الجمهورية الناشئة فريسة لمصالح الدولتين، فانتصرت تركيا في حربها ضد أرمينيا، وجرى تقليص حدود الأخيرة وعدد جيشها، وفُرضت شروط مجحفة عليها، فيما احتل السوفيات جورجيا. وهكذا، فُضي على الحكم الأرمني في المقاطعات الشرقية، وصنّفت "أرمينيا التاريخية" من بين المسائل العالقة في ملفات الدولة الكبرى، وأصبح الأرمن بموجب معاهدة لوزان (تموز 1923) "أقليات" في الجمهورية التركية. لكن حكومة أنقره تعهّدت بموجب القسم الثالث من المعاهدة (البند 38 – 44) بالحماية الكاملة للأقليات ضمن أراضيها.<sup>42</sup>

\*

وحيث حلّ الأرمن في البلاد التي فرّوا إليها، لم يكونوا فيها مجرد لاجئين فارين من مجازر الاقتلاع والإبادة، بل رواداً في الحرف والمهن والصناعة والتجارة والاقتصاد. وقد حملوا معهم تراثهم العريق الضارب في تراب أرمينيا التاريخية، وسرعان ما انخرطوا في النسيج الاجتماعي لتلك البلدان، وأسهموا في الحياة السياسية وفي النهضة الثقافية والأدبية والعلمية والإعلامية، وفي الفنون الجميلة والموسيقى. وتأسيساً على قيام جمهورية أرمينيا الأولى العام

<sup>39</sup> القضية الأرمنية، مصدر سبق ذكره، 212-213.

<sup>40</sup> „Bericht über die Lage des armenischen Volkes in der Türkei“, Potsdam 1916.

<sup>41</sup> "لمحة عن جمهورية أرمينيا الأولى عام 1918". ملحق أرتاك العربي للشؤون الأرمنية، 27 أيار 2012،

<http://www.aztagarabic.com/archives/5208>

<sup>42</sup> J.c. Hurewitz (Ed.), *The Middle East and North Africa in World Politics. A Documentary Record*, 2<sup>nd</sup>. Ed., Revised and Enlarged, New Haven and London, 1979, 330 – 331.



1918، يحتفل الأرمن منذ العام 1991 بالاستقلال عن الاتحاد السوفياتي الذي انهار في ذلك التاريخ.

### ملحق:

أعداد الأرمن الذين تعرضوا إلى الإبادة والتهجير على أيدي العثمانيين<sup>43</sup>

السنة	العدد
1915	600 ألف قتيل
1916	400 ألف قتيل خلال التقدم التركي في الأراضي الروسية
1920	30 ألف قتيل أرمني، وفرار 80 ألفاً إلى سورية
1922	ترحيل ما تبقى من الأرمن، وعددهم 100 ألف.

<sup>43</sup> Rouben Paul Adalian, "The Armenian Genocide : Context and Legacy", *The Official Journal of the National Council for the Social Studies*, [http://www.armenian-genocide.org/Education.56/current\\_category.117/resourceguide\\_detail.html](http://www.armenian-genocide.org/Education.56/current_category.117/resourceguide_detail.html)